

ابن الاجيدي

لِلأستاذ الدكتور عبد العزيز بهام
رئيس قسم اللغة العربية

التعريف به : حياته وثقافته :

هو ابراهيم بن اسماعيل بن احمد بن عبد الله ، اللواتي ، الطرابلسي المغربي ، الافريقي ، الملقب بأبي اسحق ، والمعروف بابن الاجدابي ، نسبة الى اجدابية ، وهي بلدة على مقربة من بنغازي ، تبعد عنها حوالي ١٦٠ كم. جنوباً ، وكان أسلافه ينتمون اليها . اما هو فقد نشأ في طرابلس الغرب ، وأقام بها لم يبرحها حتى توفي ، فدفن بها .
وأول من أشار اليه في الكتب التي بين أيدينا أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت الحموي ، في معجم الأدباء (ج ١ ص ١٣٠) ، فقد ذكر اسمه

١ راجع ترجمته في : معجم الادباء ١ ص ١٣٠ ومعجم البلدان مادة (اجدابية) ١ ص ١٠٠ ، وفي انباء الرواة ١ ص ١٥٨ ، وفي رحلة التجاني ص ٢٦٢ ، وفي (بغية الوعاة) ص ١٧٨ .
=

ولقبه ، وشهرته ، ثم قال « له ادب وحفظ ، ولغة وتصانيف . ومن مشاهيرها كتابه « كفاية المتحفظ » ، صغير الحجم ، كثير النفع ، وكتاب « الأنواء » . ثم أشار اليه في معجم البلدان حين تحدث عن اجدابية ، فقال : « كان اديبا فاضلاً . له تصانيف حسنة منها « كفاية المتحفظ » ، وهو مختصر في اللغة مشهور ، مستعمل جيد ، وكتاب الانواء ، وغير ذلك . »

ثم جاء غيره فاعتمد عليه وزاد . ونقل السيوطي في « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » ما أورده ياقوت في معجم الأدباء بنصه . وذكر القفطي الذي كان معاصراً لياقوت - في أنباء الرواة أنه « .. من أهل اللغة ، ومن تصدر في بلده . واشتهر بالعلم . وكانت له يد جيدة في اللغة وتحقيقها ، وافادتها . وهو متأخر . وصنف في اللغة مقدمة لطيفة سماها (كفاية المتحفظ) يشغل بها الناس في المغرب ومصر . » هذا ، ويذكر التجاني في رحلته (٧٠٦ - ٧٠٨ هـ) ان ابن الاجدابي كان حسن الحظ ويقول : « واخبرت ان الأمير ابا زكريا ، رحمه الله ، كان شديد البحث على خطه ، وانه سمع ان كتاب (الفصيح) بيع بخطه في طرابلس ، فبرد يريد الىها في البحث عنه ، فبحث عنه ، ووجهه إليه . »

ويقول : « وكذلك اخبرت ايضا انه سمع ان بطرابلس كتاب (أمثلة الغريب) لابي الحسن علي بن الحسين الهنائي المعروف بكراع ،

= وفي العصر الحديث في (كشف الظنون) ٢ ص ٣٩٩ ، وفي (هدية العارفين) ١ ص ١٠ ، وفي (الاعلام) ١ ص ٢٥ ، وفي بروكلمان ١ ص ٨٣ وذيله ١ ص ٥٤١ وفي مقدمة (الازمنة والأنواء) ص ٢١ وفي مجلة (المجمع العلمي) بدمشق ٢ مجلد ٣٣ (اول نيسان ١٩٥٨ - ١١ رمضان ١٣٧٧) ، وفي (اعلام من طرابلس) ص ٩٣ .

بخط الفقيه ابي اسحق ، في ملك بعض (بني النقاد) ، وهم من اعيان طرابلس ، فوجه اليه فيها . فوجه (النقاد) بها اليه . وقد وقفت على كتب (النقاد) بوصول الكتاب المذكور ، والشكر له على بعثته ^١ . ثم جاء المؤلفون المحدثون فنقلوا في ترجمة ابن الاجدابي خلاصة ما ذكرناه ، وزادوا عليه زيادات طفيفة ، ولا سيما في مؤلفاته ، كما سنرى . والذي اجمع عليه المؤلفون ان ابن الاجدابي لم يغادر طرابلس الغرب طوال حياته . أي انه ظل بها يطلب العلم ويدرسه ، ويؤلف فيه . « وقد سئل : انى لك هذا العلم ، ولم ترتحل ؟ فقال : اكتسبته من بابي هواره وزناته (وهما بابان من ابواب البلد ، نسبا الى من نزل بهما في اول الزمان ، ولا يزالان يعرفان حتى اليوم بهذين الاسمين) يشير الى انه انما استفاد ما استفاد من العلم بلقاء من يفد على طرابلس ، فيدخل من هذين البابين من المشرقين والمغربيين . وكان له اعتناء بلقاء الوفود ، والقيام بضيافتهم ^٢ » .

لقد كانت طرابلس في ذلك الزمان في طريق الذهاب من المشرق العربي الى المغرب العربي ، ومن المغرب الى المشرق ، فكانت لذلك محط رحال الكثيرين من العلماء الذين يطلبون الرحلة . وكانت البلاد الإسلامية اذ ذاك بلداً واحداً أو كالواحد ، فلم تكن حركة انتجاع العلم والرحيل في طلبه ، وحركة الحج الى بيت الله الحرام - تنقطع .

وقد استطاع ابو اسحق ان يغتنم هذه الفرصة ، لتثقيف نفسه . فكان المسافرون من العلماء وغيرهم يضطرون بطبيعة الحال الى ان يقيموا بطرابلس فترة من الزمان ، قد تقصر وقد تطول ، طلباً للاستجمام . وفي خلال هذه الفترة يفيضون على الناس من علمهم . فقد كانت طرابلس ، كما

١ ص ٢٦٣ - ٢٦٤

٢ رحلة التجاني ص ٣٦٤ .

يقول التجاني ، تغص بالمساجد ، وكانت تقام فيها حلقات الدرس ،
واذا كان التجاني قد مر بها بعد عصر ابن الاجدابي بأكثر من قرنين
من الزمان ووجدها على هذه الحال ، فقد كانت ، ولا شك ، أكثر
ازدهاراً وحركة علمية في الحقبة التي نحن بصدد الكلام عنها .

كذلك نحس مما أورده التجاني في رحلته عن هذه البقاع انه كان بها
علماء وفقهاء يدرسون للناس في المساجد .

كما ان حفاوة أبي اسحاق بالوافدين على البلد ، واستضافتهم دليل
على انه كان موسعاً عليه في الرزق ، وانه بذلك كان يجد لديه من
الوسائل ما يمكنه من طلب العلم ، والافادة منه .
ويقول التجاني :

« وكان الفقيه أبو اسحق هذا من أعلم أهل زمانه بجميع العلوم ،
كلاماً ، وفقهاً ، ونحواً ولغة وعروضاً ، ونظماً ، ونثراً ^١ »

« وأخبرني بعض الطلبة ان خط الفقيه أبي اسحاق باق الى الآن في
بعض جدر داره من طرابلس ، وهي في وسط البلد ، بمقربة من الجامع
الأعظم ^٢ » .

ويبدو أن العناية بالخط كانت من شيم فريق من العلماء والأدباء . فهذا
ابن قتيبة يقول في مقدمة أدب الكاتب : « فأبعد غايات كاتبنا ان
يكون حسن الخط ، قويم الحروف ^٣ » .

أى ان هذه كانت عادة شائعة بين صفوف الادباء . ولكن ذكرها
بالصورة التي يعرضها التجاني وتأكيدده على هذا الجانب دليل على ان مجيدي
الخط في منطقة طرابلس كانوا قلة ان لم يكونوا نادرة .

١ رحلة ص ٢٦٢ .

٢ ص ٢٦٤

٣ ص ٢ ط محيي الدين عبد الحميد .

وتقول ، مع التجاني : « وكفى بهذا الرجل المعظم القدر فخراً لهذا القطر ، ولم تكن له رحلة عن بلد طرابلس الى غيرها ^١ » .

تاريخ حياته :

يقول التجاني :

« وزرت هناك قبر الفقيه الامام ابي اسحق ... اللواتي الطرابلسي . وهو قبر معظم ، يكثر الناس زيارته ، والدعاء عنده ^٢ » .
نعود فنقول ان هذا التعليق يدل على مكانة ابن الاجدابي ، بين مواطنيه ، اذ لا يزالون يختلفون الى قبره « بكثرة » بعد مرور قرنين أو يزيد على وفاته .

هذا ، وقد اختلف المؤرخون في تاريخ الوفاة ، اذ لم يذكر القدماء شيئاً من هذا التاريخ . اما المحدثون فقد ارجعوا بالغيب دون ما تحقيق يذكر . على ان الذي اشار الى تاريخ الوفاة هو الزركلي وبروكلمان لا غير . يقول الزركلي في كتابه (الاعلام) ان ابن الاجدابي توفي حوالي عام ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) ولم يذكر سواه من المؤلفين العرب اي تاريخ للولادة أو الوفاة .

ولسنا ندري علام اعتمد الزركلي في وضع هذا التاريخ ، لأنه لم يفعل أكثر من ذكره ، كأنه امر مسلم به .
وفي اعتقادنا ان هذا التاريخ بعيد الاحتمال جداً ، لأننا رأينا ان ياقوتاً الحموي قد ذكر (ابن الاجدابي) في كتابه (معجم الادباء) و (معجم البلدان) ، ولم يشر فيها الى انه لا يزال على قيد الحياة بل

١ ص ٢٦٤

٢ ص ٢٦٢ .

بالعكس تكلم عنه كأنه متوفى ، فقال عنه في معجم البلدان : « كان ادبياً » ثم جاء (القفطي) ، فتكلم عنه أيضاً ، وقال : « .. وكانت له يد جيدة في اللغة .. وهو متأخر » .

من هذين النصين القديمين نرى ان ابن الاجدابي لم يكن على قيد الحياة حين كتبنا . فاذا عرفنا ان ياقوتاً توفي عام ٦٢٦ هـ ، وان القفطي توفي عام ٦٤٦ هـ دل ذلك على ان ابن الاجدابي لم يعيش حتى عام ٦٥٠ هـ ، كما يقول الزركلي .

ولذلك نرى انه توفي قبل ياقوت بزمن .

اما بروكلمان فيقول انه توفي قبل عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) . وهذا ايضا تاريخ بعيد عن الحقبة التي كان يعيش فيها ابن الاجدابي . على ان التجاني يورد في رحلته حكاية قد تقرب فترة حياة ابي اسحق . فقد ذكر ان ابن الاجدابي « حضر يوماً بطرابلس عند القاضي ابن هانش فحكم ابو محمد بحكم اخطأ فيه ، فرد عليه الفقيه ابو اسحاق . فقال له : اسكت يا أحول ، فما استدعيت ، ولا استفتيت » ثم قال التجاني : « وكانت ولاية ابن هانش طرابلس سنة اربع واربعين واربعمائة ، بعد ان فر منها قاضيه محمد بن فاضل البكري الافريقي ، هارباً خوفاً من أهلها . وعزل عنها سنة سبع وسبعين (واربعمائة طبعاً) فكانت ولايته اثنتين وثلاثين سنة ^١ » .

وفي فهرس المخطوطات المصورة (القاهرة) ج ١ ص ٣٦٦ ان ابن الاجدابي من علماء القرن الخامس الهجري . وهذا ما يعزز ما وصلنا اليه . ومعنى هذا ان ابن الأجدابي كان يعيش في منتصف القرن الخامس الهجري . وليس بين أيدينا حتى الآن ما يمكن ان نتخذ منه سنداً نحدد به تاريخ حياة أبي اسحق اكثر من هذا .

ويبدو ان الدكتور (عزة حسن) الذى نشر كتاب (الازمنة والانواء) لم يهتد الى تاريخ حياة ابن الاجدابي ، بل انه لم يحاول ان يحققه ، فقد اكتفى بما ذكره الزركلي ، فقال : « وتوفي هناك أيضاً حوالي سنة ٦٥٠ هـ »^١ . أما التاريخ الذى ذكر على غلاف الكتاب وهو ٩٥٠ هـ . فهو بلا شك خطأ مطبعي ، حدث سهواً .

مؤلفاته :

من هذا العرض الذى بسطناه ، وما ذكره المؤلفون الذين أشرنا اليهم نرى ان ابن الاجدابي ألف :

١ - كفاية المتحفظ : ونهاية المتلفظ في اللغة العربية :

وهو بحث في اللغة سنتحدث عنه بالتفصيل بعد قليل . وقد طبع في القاهرة عام ١٢٨٧ هـ ثم عام ١٣٢٣ هـ ، وفي بيروت عام ١٣٠٥ هـ ، وفي حلب عام ١٣٤٣ مع كتابين آخرين في اللغة .

ولكن هذا الكتيب توجد منه مخطوطات عدة ، موزعة بين مكتبات العالم ، ذكر بروكلمان في تاريخ الأدب وفي ذيله أكثرها .

برلين ٧٠٤٣ - جوته ٠٤٢٣ المتحف البريطاني ١٠١٠ (٢) - جار الله رقم ١٦٧ (استنبول) ، ٢٧١ - الاسكندرية (فنون) ١٨٨ / ٩ - باتنا (الهند) ج ١ ص ١٨٨ رقم ١٧٠٥ كمبردج ٩٣٥ - فينا ٨٧ - لننجراد .

باريس ٤٢٥٣ - الجزائر ١٨٤١ رقم ١٠ - لاكلي و (استنبول) ٣٧٤٠ رقم ٨ - شهيد علي (استنبول) رقم ٢٦٦٧ - دار الكتب

(القاهرة) فهرس ط ثانية ج ٢ ص ٣١ - رامفور (الهند) ج ١ ص ٥١٤ رقم ٦٣ ورقم ٦٤ .

وفي فهرس المخطوطات المصورة (القاهرة) ج ١ ص ٣٦٦ أن هناك في بلدية الاسكندرية نسخة خطية رقم ٣٦٤٨ - ١١٠ ق ١٦×٣٣ سم - وهي نسخة كتبت في القرن الثاني عشر . وان هناك نسخة اخرى في كوبريللي ١٣٢٥ / ٢ ٢٧٠ ق ٢٣×١٦ سم . كتبت في سنة ٦٣٠ هـ . بخط جميل واضح مشكول .

وقد علمت ان فهرس مكتبة (الاوقاف) بطرابلس يذكر وجود نسخة خطية بها .

هذا وقد لقي « كفاية المتحفظ » من العناية الشيء الكثير ، فقد شرح ، ونظم ، واختصر .

شرحه :

شرحه عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسي ، المغربي . ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية ، فهرس ط ثانية ج ٢ ص ٦٦٨٩ ويسمى كتابه هذا « تجريد الرواية في تحقيق الكناية » .

نظمه :

وقد نظم « كفاية المتحفظ » غير واحد .
فنظمه قديماً حمد بن أحمد بن عبد الله الطبري ، جمال الدين^١ المتوفى عام ٦٩٤

١ يذكر علي الفقيه حسن في بحثه الذي اشرنا اليه ان اسمه شهاب الدين ، وانه توفي عام ٩٦٣ هـ ولا ندري من اين استقى معلوماته هذه .

و (١٢٩٤) كما يقول بروكلمان ، بعنوان « عمدة المتلفظ » . وتوجد منه مخطوطات في فيينا برقم ٨٨ وفي بردسة (تركيا) برقم ادبيات رقم ١٠٤ .

وقد أشار اليه حاجي خليفة رقم ٨٣٥١ بعنوان « عمدة المتلفظ في نظم كفاية المتحفظ » وذكر ان منه نسخاً أخرى مخطوطة في برلين ٧/٩٧٤ وفي ميونخ ٥١ ، وأصفية (هند) ج ١ ص ٣٠٢ . وقال انه نظمه للملك المظفر يوسف بن عمر . وذكر ان اسم الناظم هو محمد بن احمد « بن جابر الأعمى » الطبري المتوفى سنة (ولم يذكر السنة) .

ويبدو ان الأمر قد اختلط على السيد علي الفقيه حسن ، فقد ذكر انه نظم مرتين : مرة قام بها القاضي شهاب الدين ابو عبد الله محمد بن احمد (الحولي) المتوفى سنة ٦٩٣ هـ ، ومرة قام بها ابن جابر محمد ابن احمد الأعمى الاندلسي ، وفرغ منها سنة سبع وسبعين وسبعائة . ولم يذكر لنا من أين استقى معلوماته هذه . ويخيل الينا ان هذين الشخصين شخص واحد هو . الذي ذكره بروكلمان وأتم اسمه حاجي خليفة . وانفظة الحولي وهم وهي الطبري .

وذكر الاستاذ على المصراتي ان الكتاب نظم « في ألف وثلثمائة بيت ، ليسهل حفظه ، ولكنه (أي الناظم) خلط حيناً ، وغلط حيناً^٢ » .

وقد سمعت من الاستاذ المصراتي ان لديه مخطوطاً من كفاية المتحفظ المنظوم . ولم اعرف منه ان كان هذا المخطوط هو ما اشرنا اليه هنا او انه شيء آخر .

١ راجع كشف الظنون ط استنبول ج ٢ ص ١١٧١ و ط ١٣١٠ حسن

حلمي الكتبي ج ٢ ص ١٣٥ .

٢ ص ٩٣ من « اعلام من طرابلس » .

ونظمه حديثا الشاعر احمد حسن الفقيه من طرابلس . ومما قاله في
« الباب الاول » « باب صفات الرجل المحموده » :

يلقب « السخي » با « لجواد »
و « الخرق » من « يُحسن للعباد »
كذا الفنى « إن أكثر العطايا »
يدعونه « الخِصَم » في البرايا
و « الخِضْرُمُ » : « المكثّر للاتفاق »
على المساكين ذوي الاملاق
و « الأريحي » « المرتاح للعطاء »
ثم « الحسيب » « الطيب الآباء »
و « الماجد » « الشريف » و « الصنديد »
رئيس قوم « رأيه سديد »
كذلك « الهمام » كالصنديد
« للرئيس العظيم » والشديد
« سَمِذَع » جاء من « الجَحْجَاح »
« لسيد القوم » هما ، يا صاح
وقل ، خليلي ، « لليب العاقل »
« أريب » و « الوقور » « للحاحل
من « جرب الامور » بالتدريب
لقبه « بالمنجّد » الأريب
و « مِدْرَه » القوم هو « المقدم »
وهو « لسان حالهم » وهو الفم

وقل لمن كان ذكي القلب
يا « لَوَذَعِي » يا فريد الصاحب
ومن « لسانه بليغ » : « مِصْقَع »
أما « السَّري » قدره مرتفع
و « اجمعه » يا صاح على « سَراة »
بفتح سين جاء بالاثبات

مختصره :

ولكفاية المتحفظ مختصر قام به اسحاق بن ابراهيم بن احمد الطرابلسي .
ومنه مخطوط في كوبريللي (استنبول) رقم ١٥٦١ .

٢ - الأزمئة والأنواء :

وقد نشره الدكتور عزة حسن ، وقد طبعته وزاره الثقافة والارشاد
القومي بسوريا عام ١٩٦٤ طبعة أنيقة تقع في ٢٣٠ صفحة من القطع
المتوسط ، وبه مقدمة عن الأنواء عند العرب في الجاهلية وأخرى عن
الأنواء عند العرب في الاسلام ثم تعريف موجز جداً بالمؤلف .

ويقول الناشر إنه وقف على « نسخة مخطوطة فريدة . بين مخطوطات
الشيخ اسماعيل صائب سنجر ، المحفوظة الآن في مكتبة كلية البنات في
جامعة انقرة . وهي ضمن مجموع صغير ، عدد أوراقه ٩٤ ورقة تشغل
منها الأوراق ٥٢ - ٩١ ، ولا أخت لهذه النسخة في العالم فيما نعلم » .
ثم يقول :

« وهي نسخة جيدة ، على وجه العموم ، بالرغم من كثرة التصحيف ،
وشيوع الغلط فيها . وقد كتبت في حلب سنة ٧٤٢ هـ بخط معتاد ،

مشكول بعض الشكل ، ورسمت فيها الأبواب بالحمرة ، وبحرف اكبر .
قياسها ١٨/١٣١ ومسطرتها ١٩ سطرأ^١ »

وقد صور الناشر في صدر الكتاب الصفحات الأولى منه (٥١ ب - ٥٢) ،
وفيه اسم الكتاب ، واسم مؤلفه ، ثم (٥٢ ب - ٥٣ أ) ، وهو
أول الكتاب ، ثم (٥٩ ب - ٦٠ أ) وفيه بعض ثغرات ، واخيراً
(٩٠ ب - ٩١ أ) وهو آخر الكتاب ، وفيه :

« علقه لنفسه ، ولمن شاء الله تعالى بعده ، أضعف عباده ، وأحوجهم
إلى عفوه ، أحمد بن عبد الرحمن بن أبي الحسن التيزي ، ثم الحلبي
الشافعي ، حامداً لله تعالى وذلك في سَلْخ رجب الفرد من سنة
اثنتين واربعين وسبعمائة ، بمسجد لله تعالى عرف بالزجاجين بحلب المحروسة ،
رحم الله منشئه ... »

وهذان الكتابان هما المطبوعان . اما غيرهما مما سنذكره فقد وردت
اسماؤها في تضايف الكتب ، ولم يعثر على شيء منها بعد . ولكن
التجاني (ابو محمد عبد الله بن محمد بن احمد) يذكر في رحلته انه ذهب
الى طرابلس وزار فيها قبر الفقيه ابن الاجدابي ثم عرض لمؤلفاته . وقد
ذكر اكثر المؤلفات المفقودة الآن . ويبدو من وصفه لها انه رآها أو رأى
بعضها على الاقل أي انها كانت لا تزال موجودة في عصره .

فن جملة هذه التأليف :

١ - كتابه في العروض .

ويقول عنه التجاني « وناهيك به حسناً وترتيباً ، وتهذيباً . وهو
نسختان صغرى وكبرى . »

أي أنه صنع كتاباً مطوّلاً في العروض ثم اختصره في كتاب آخر .
٢ - كتابه في الرد على (أبى حفص) ابن مكي ، في تثقيف اللسان .

٣ - كتاب في شرح ما آخره ياء مشددة من الأسماء ، وبيان اعتلال هذه الياء ، على اختلاف أحوالها : من تصغير وتكسير ، وغير ذلك .
ولما استوفى فيه ذلك الكلام استيفاء جميلاً تعرض لشرح المقاطع الواقعة في سورة مريم^١ ، لاشتغالها على كثير من تلك الأحكام ، فجاء هذا التأليف في غاية الافادة والتحقيق^٢ .

٤ - رسالة تعرف باسم « الحَوَال » تعرب عن أدب كبير ، وعلم غزير .

ويذكر التجاني سبباً لهذه الرسالة الصدام الذي حدث بين ابن الأجدابي وبين القاضي ابن هانث ، والذي أشرنا إليه من قبل .

٥ - كتاب اختصر فيه كتاب « أنساب قريش » تأليف ابن عبد الله الزبير بن أبي بكر بن عبد بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ابن العوام .

يقول التجاني : وحسبك بهذا التأليف الجليل علماً وفائدة . وهو كما كان الشيخ أبو الحسن علي بن مغيث رحمه الله يقول : « هو كتاب

١ من مثل قوله تعالى :

« قال : اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا . وجعلني مباركا اينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرأ بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا . والسلام علي يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا . »

٢ الرحلة ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

عجب لا كتاب نسب » .

« ورأيت الفقيه أبا اسحق قد أدخل من حفظه في نفس هذا المختصر
زوائد ، تشتمل على فوائد ، نبه عليها ^١ » .

(وبعد) فبين أيدينا كتاباه المنشوران - كفاية المتحفظ والأزمنة والانواء .

سنتكلم عن كل منهما كلمة نقف منها على مكانة ابن الجدابي
اللغوية ومدى تضلعه في علوم العربية .

أولا - كفاية المتحفظ ، ونهاية المتلفظ

لقد ذكرنا من قبل ثبأ بالنسخ الموجودة من هذا الكتاب مخطوطة
ومطبوعة ، ولا تزال هناك نسخ مخطوطة بلا شك لم نهتد إليها .

والذي يسترعي النظر ان هذا المؤلف على صغر حجمه ، قد وجدت
منه مخطوطات متعددة ، متناثرة في شتى مكتبات العالم . وهذا يدل على
مقدار العناية والاهتمام به . والحرص على اقتنائه ، حتى نسخه الكثيرون .

وبين أيدينا نسختان منه ، احدهما المطبوعة بالقاهرة ، عام ١٣٢٣ هـ ،
ويبلغ عدد صفحاتها ٥٤ صفحة من القطع الصغير ، والاخرى المطبوعة
في المطبعة العلمية في حلب عام ١٣٤٣ هـ . ولم يذكر اسم الذي اشرف
على ضبطها . ولكنها موجودة في مجموعة مؤلفة من ثلاث رسائل هي
احداها . والرسالتان الاخرتان هما « مختصر الوجوه في اللغة » لأبي عبد الله

الخوازمي ، و « كتاب المذكر والمؤنث » لأبي زكريا الفراء « وكلاهما كتب على غلافه » عني بتصحيحه والتعليق عليه مصطفى احمد الزرقا .
ولسنا ندري ان كان هو الذي اشرف ايضاً على « كفاية المتخفظ » أو اشرف عليه غيره ، ولم يذكر اسمه ، ثم جمعت الرسائل في مجلد واحد .

على ان « الشركة الخيرية لاهياء الكتب العربية » التي اشرفت على طبع الكتاب تقول في مقدمة المجموعة . « وقد جعلت فاتحة أعمالها المباشرة طبع ثلاث كتب من نفائس كتب اللغة ، ظفرت بها في مجموع في (المدرسة الاحمدية) بحلب ، أولها « كفاية المتخفظ » تأليف الامام أبي اسحق ، ابراهيم بن اسماعيل بن احمد بن عبد الله ، الطرابلسي ، الأديب المعروف « بابن الأجدابي » . وهو محرر بخط اسماعيل بن محمود ابن آدم الغزنوي ، الحنفي ، الشهير . فرغ من كتابته سنة ٥٧٨ هـ . والكتاب على نسق « فقه اللغة » للثعالبي وتجد فيه طرائف اللغة وفوائدها التي يحتاج اليها الكاتب مما لا تجده في غيره » .

وقد أشرنا من قبل الى ان هذه المقدمة ذكرت ان عماد الدين أبو الفداء البعلي (ت ٧٦٤ هـ) قد نظم . وقالت : « وقد كان طبع في بيروت سنة ١٣٠٥ هـ إلا أن النسخة نفدت من سنين ، وبما ان موضوعه مرتبط بموضوع الكتابين الآخرين أعدنا طبعه ثانية معها ^١ » .

وتقع نسخة حلب في ٧١ صفحة من القطع المتوسط . وتكاد كلماتها تكون مشكلة كلها . وقد عارضنا « باب في المحال والأبنية » منه على القاموس المحيط للفيروزبادي فوجدناه مضبوطاً ضبطاً صحيحاً ، إلا أن هناك أحياناً اقتصاراً في الضبط على لغة دون اللغات الأخرى . من ذلك مثلاً لفظة « أس » فقد ضبطت بالضم ، وقال الفيروزبادي انها مثلثة ،

١ ص (ب و ح) .

أو اختلافاً في التفسير (وهذا يرجع طبعاً للمؤلف) . فقد ذكر ابن الأجدابي ان معناها « ما بقي من الرماد بين الأثافي » وذكر الفيروزبادي ان معناها « أصل البناء كالأساس » . والمعنيان متباعدان .

كذلك « النوى » فقد ضبطت بضم النون ، وذكرها الفيروزبادي مثله . وقال ابن الأجدابي في معناها « حاجر من رمل يحاط به البيت ليمنع المطر » ، وقال الفيروزبادي « الحفير حول الحباء أو الخيمة يمنع السيل » . والتفسيران مختلفان ، وان كانت الغاية واحدة .

والكتاب ، رغم انه طبع عدة مرات نادر الوجود ، لأنه مرتب بطريقة تجعل كلاً من الشاعر والأديب يحرص على اقتنائه ، لأنه يذكر الألفاظ الدالة على شيء ما ، اسماً أو صفة ، ويبين ما بينها من فوارق هم كلاً منها .

وفي عصرنا الحاضر يكون هذا النوع من التأليف ضرورة لازمة للمترجم فكثيراً ما تنبذ عن باله اللفظة العربية التي تقابل لفظة أجنبية ينقلها الى العربية ، فيكون مثل هذا الكتاب خير معين له في العثور على اللفظ العربي المناسب . كما يحتاج اليه المنقبون من رجال المجامع ، الباحثون عن ألفاظ قديمة لمسميات حديثة .

سبب تأليفه ومنهاجه :

يقول المؤلف في مقدمة كتابه .

« هذا كتاب مختصر في اللغة ، وما يحتاج اليه من غريب الكلام . أودعناه كثيراً من الأسماء والصفات ، وجنبناه حوشي الألفاظ واللغات ، وأعربناه من الشواهد ، ليسهل حفظه ويقرب تناوله ، وجعلناه مغنياً لمن

اقتصد في هذا الفن ومعيناً لمن أراد الاتساع فيه ^١ .

في هذه الكلمات القليلة بين المؤلف الدوافع التي دفعته الى تأليف كتابه ، والمنهاج الذي اختطه فيه لنفسه ، والسبب في انه جعله مختصراً .

لقد الفه لأهل زمانه الذين يعوزهم التمكن من متن اللغة ، وجمع فيه بين أمرين : أن يكون « مغنياً لمن اقتصد في هذا الفن » ، وأن « يكون معيناً لمن أراد الاتساع فيه » . انه يضعه على اول درجة في السلم ، ويرسم له طريق الصعود فيه ، ثم يدعه ونفسه .

ولما كان هدفه ان يستفيد منه من ليس له إلمام واسع باللغة ، فقد راعى فيه سهولة المأخذ ، وسهولة العلوق بالذهن ، فجنبه « حوشي الألفاظ » أي غير المستعمل أو القليل الاستعمال ، « الثقل على السمع واللسان » و « أعراه من الشواهد » فجعله متناً للغة ، كسائر المتون ، متون المواد ، يحفظ حفظاً ليكون منه زاد للمتعلم .

والحق أن الألفاظ جثث هوامد لا يبعث فيها الحياة الا الاستعمال ، والاستعمال انما يعرف بذكر الشواهد . فهي التي تحدد المعنى الدقيق . وآفة الكثير من معاجمنا هو سرد معاني الألفاظ ، وقد تكون كثيرة كثرة مفرطة دون ذكر الاستعمالات التي وردت فيها هذه الألفاظ . وكثيراً ما يردد مؤلفو المعاجم احتمال اللفظ الواحد لمعان متعددة ، وقد تكون متضاربة ، من غير ان تذكر لنا الأمثلة التي تبين لنا بوضوح سبب هذا الاحتمال . وذكر الشواهد قد لا يجعلنا نتفق مع صاحب المعجم أو مع اللغوي في فهمه . وبذلك يصحح الكثير من الدلالات الخاطئة الشائعة ، والتضارب في الفهم .

حقاً ، ان ذكر الاستعمالات الكثيرة يثقل على المؤلف ، ويزيد من

حجم المؤلف ، ولكنه أكثر امانة ودقة . واذا كان كتاب « كفاية الألفاظ » بدون الشواهد يقع في ٥٤ (أو ٧١ حسب الطبعة) صفحة ، فلم يكن هناك ما يضر لو انه احتوى على الشواهد ، وتضاعف حجمه .

خذ لذلك مثلاً : يقول الفيروزبادي في قاموسه المحيط : الوَصَح (حركة) بياض الصبح ، والقمر ، والبرص ، والغرة ، والتحجيل في القوائم ، وماء لبني كلاب ، والشيب ، والدرهم الصحيح ، ومحجة الطريق ، واللبن ، وحلى من الفضة (ج أوضاع) ، والخلخال وصغار الكلا ... »

ويقول « المَزْن (بالضم) السحاب أو أبيضه أو ذو الماء .. ويقول : « المَعْن (بفتح فسكون) ، الطويل والقصير ، والقليل والكثير ، والهن السير ، والاقرار بالذل ، والجحود ، والكفر بالنعم ، والاديم ، والماء الظاهر ... »

قرناء ابن الجدابي (ممن سبقوه أو عاصروه) .

إن هذا النوع من التأليف نشأ منذ 'فكر في تدوين اللغة ، فقد بدأ هذا التدوين أول ما بدأ بكتابة رسائل صغيرة في موضوع بعينه تتناوله من نواحيه المختلفة . وكانت هذه الرسائل نواة للمعاجم فيما بعد .

فالأصمعي (ابو سعيد عبد الملك بن قريب) الذي كان يعيش في القرن الثاني (ت ٢١٦ هـ) كتب رسائل عن اللبأ ، وعن اللبن ، وعن الخيل ، وعن النبات ، وعن خلق الانسان .. الخ . وهناك كثير غيره سلكوا مسلكه .

ودافع آخر دفع الى السير في هذا الاتجاه ، والتوسع فيه ، ولكن دون التوقف عند حد التوسع في موضوع بعينه ، بل الأخذ من كل موضوع

بطرف ، على النمط الذي سار عليه (ابن الاجدابي) - هو الرغبة في تزويد الكتاب بأساليب أدبية ولغوية قويمه . وكان ذلك عندما شاع الغلط في الاستعمالات اللغوية ، وقصرت همه المتأديين عن بلوغ المستوى الأدبي واللغوي الرفيع .

ابن قتيبة :

فهذا (ابن قتيبة) الذي عاش قبل ابن الاجدابي بقرنين من الزمان تقريباً (ت ٢٧٦ هـ) يقول مثل ما يقول (ابو اسحق) ، في سبب تأليفه كتابه « أدب الكاتب » وطريقته فيه ، بعد ان افاض في المقدمة في انصراف الناس عن الادب ، وجهلهم باللغة وبمتمنها جهلاً فاحشاً احياناً ، حتى الذين اصطفاهم الخلفاء ليتولوا شئون الديوان :

« فلما ان رأيت هذا الشأن كل يوم الى نقصان ، وخشيت ان يذهب رسمه ، ويعفو اثره - جعلت له حظاً من عنايتي ، وجزءاً من تأليفي ، فعملت لمُغْفِلِ التَّادِيبِ كتباً خفافاً في المعرفة ، وفي تقويم اللسان واليد ، يشتمل كل كتاب منها على فن ، وأعفيتها من التطويل والتثقيب ، لأنشطه لتحفظه ودراسته إن فاءت به همته ، وأقيد عليه بها ما أضل من المعرفة ، واستظهر له ^١ باعداد الآلة لزمان الإدالة ^٢ أو لقضاء الوطر ^٣ عند تبين فضل النظر . وألحقه - مع كلال الحد ^٤ ، ويُبْس الطينة - بالمرهفين ^٥

١ احتاط له واستوثق .

٢ الاعداد ، تهيئة الشيء لوقت الحاجة . والادالة - وقت رجوع الدولة بعد زوالها .

٣ كل حاجة فيها همه .

٤ تشبيهه بالسيف القليل المضاء .

٥ المرهف المرقق الحد . ويقصد الأذكاء ذوي الأنهام .

وادخله - وهو الكَوْدَنُ^١ - في مِصْهَرِ العِتَاقِ^٢ ..

ويقول :

« ونستحب له (للكاتب) أن يدعَ في كلامه التَّعْغِيرَ^٣ والتَّعْقِيبَ^٤ .. فهذا وأشباهه كان يستثقل ، والأدب غص ، والزمان زمان ، وأهله يتحلون فيه بالفصاحة ، ويتنافسون في العلم ، ويروونه تلو المقدار في درك ما يطلبون ، وبلوغ ما يؤملون - فكيف به اليوم مع انقلاب الحال ، وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) « ان ابغضكم إليَّ الثرثارون ، المتفسيهقون ، المتشدقون ؟؟ »^٥

الهمداني :

أما (الهمداني) عبد الرحمن بن عيسى (ت ٣٢٠ هـ - ٩٣٣ م في الغالب) فقد وضع كتابه « الألفاظ الكتابية » في هذا الاتجاه . وينسب الى صاحب بن عباد (ت ٣٨٥ هـ) قوله :

« لو أدركت عبد الرحمن بن عيسى ، مصنف كتاب الألفاظ ، لأمرت بقطع يده . فسئل عن السبب فقال : جمع شذور العربية الجزلة في أوراق يسيرة ، فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ، ورفع عن المتأدين تعب الدرس ، والحفظ الكثير ، والمطالعة الكثيرة الدائمة^٦ » .

١ البرذون .

٢ العتيق ، السابق من الخيل .

٣ الانتهاء الى قعر الشيء والذي يتقعر في كلامه هو الذي يأتي بالغريب فيه .

٤ التعمق .

٥ ص ١٣ .

٦ مقدمة كتاب الالفاظ في ترجمة عبد الرحمن الهمداني .

يقول الهمداني في مقدمة كتابه هذا عن سبب تأليفه : « ووجدت المتأخرين في الآلة (آلة الكتابة) قوماً أخطأهم الاتساع في الكلام ، فهم متعلقون في مخاطبتهم وكتبهم باللفظة الغريبة ، والحرف الشاذ ، ليميزوا بذلك عن العامة ، ويرتفعوا عند الأغبياء عن طبقة الحشو . والحرّسُ والبكّمُ أحسنُ من النطق في هذا المذهب الذي تذهب إليه هذه الطائفة في الخطاب . »

« وألفت آخرين قد توجهوا بعض التوجه ، وعكّوا عن هذه الطبقة ، غير أنهم يمزجون ألفاظاً يسيرة قد حفظوها من ألفاظ كتاب الرسائل ، بألفاظ كثيرة سخيفة من ألفاظ العامة ، استعانة بها ، وضرورة اليها ، لحفة بضاعتهم . ولا يستطيعون تغيير معنى بغير لفظة ، لضيق وسعهم . فالتكلف والاختلال ظاهران في كتبهم ومحاوراتهم ، ان كانوا يؤلفون بين الدرة والبصرة في نظامهم . »

« فجمعت في كتابي هذا لجميع الطبقات أجناساً من ألفاظ كتاب الرسائل والدواوين البعيدة من الاشتباه والالتباس ، السليمة من التقدير ، المحمولة على الاستعارة والتلويح ، على مذهب الكتاب وأهل الخطابة ، دون مذاهب المتشدقين والمتفاسحين من المؤدبين والمتأدبين المتكلفين — البعيدة المرام ، على قربها من الأفهام في كل فن من فنون المخاطبات ، ملتقطة من كتب الرسائل ، وأفواه الرجال ، وعرصات الدواوين ، ومحافل الرؤساء ، ومتخيرة من بطون الدفاتر ، ومصنفات العلماء . »

ثم يبين الغاية من هذا كله ، فيقول :

« فليست لفظة منها إلا وهي تنوب عن أختها في موضعها من الكتابة أو تقوم مقامها في المحاورة ، إما بمشاكلة أو بمجانسة أو بمجاورة فإذا عرفها العارف بها وبأماكنها التي توضع فيها كانت له مادة قوية ، وعوناً ظهيراً . »

فالهمداني اذاً يهدف من وضع كتابه هذا أن يزود الكتاب بالفاظ وتراكيب مترادفة أو تؤدي معنى متقارباً يستطيعون أن يستعملوها ، حتى لا تضيق بهم السبل عند الكتابة ، وخصوصاً اذا كانوا يريدون الكتابة بصور مختلفة في موضوع بعينه كالتهنئة أو التعويد أو الوعد أو غيرها .

فيقول مثلاً « باب الارشاد » :

« يقال - أرشدت الرجل إلى الرأي وغيره إرشاداً ، وهديته هداية ، ودلته دلالة ، وأدلته عليه إدلالاً .

« وهديت الرجل في الدين هدى ، وفي الطريق والرأي هداية ... وسدّدته تسديداً ، ووقفته توقيفاً ، وعرفّته تعريفاً ، وعلمّته تعلماً ، وبصّرتَه تبصراً ، وثقّفته تثقيفاً ، وفهّمته تفهيماً ، وأفهمته ، وبيّنته له وقومته تقويماً ، وأيدّته تأييداً بالرأي » .

هذا هو لون المعالجة التي عالج بها (الهمداني) متن اللغة . انه لم يشرح أو يوضح منها شيئاً . بل اكتفى بسرد ما تراءى له أنه مترادفات سرداً ، ونسي أو تناسي الفوارق الدقيقة التي توجد بين الالفاظ التي ظاهرها الترادف ، وليست في حقيقة الأمر كذلك . فهناك مثلاً فرق بين علم وعرف ، وفرق بين ثقف وعلم ، وبين هداه ودلّه وبين سدده ووقفه على كذا ...

ولكنه حقق الهدف الذي من اجله ألف الكتاب وجمع امام الكاتب أو الخطيب أو الشاعر ... الألفاظ التي تؤدي (في اعتقاده) معنى واحداً أو معاني متقاربة . وليس كذلك عمل (ابن الاجدابي) ، فهو أكثر دقة .

التهالبي :

اما ابو منصور التهالبي (ت ٤٢٩ هـ) الذي كان معاصراً لابني

اسحق أو عاش قبله بفترة وجيزة ، فقد انتحى في كتابه « فقه اللغة وسر العربية » نحواً آخر يختلف عما سبقه ، ينم عنه الاسم الذي اختاره لكتابته نفسه . وطريقته التي اتبعها هي الطريقة التي سار عليها ابن الجدابي . ولكن كتاب الثعالبي كان أعم ، وأكثر تنوعاً ، وأغزر مادة ، وأكبر حجماً . فهو يصل الى ٤٧٥ ص من القطع الصغير . وقد ختمه بذكر بعض موضوعات في اللغة ، غاية في الدقة ، ومنها ما يدخل في « فن البديع » من الكلام ، فتكلم عن معنى الاستعارة ، لغة واصطلاحاً ، وضرب الامثلة لها ، وعن التجنيس ، وعن الطباق : وفي الالتفات والحشو ... وجارى في ذلك ما كان شائعاً في عصره عن هذه المناحي . ويبلغ هذا الملحق نحواً من ١٢٥ ص .

ونحن لا نستطيع أن نجزم أي الاثنين كان أسبق في التأليف من الآخر : الثعالبي أو ابن الجدابي . وان كان الثابت أن الثعالبي مات في اوائل الربع الثاني من القرن الخامس على حين ان ابن الجدابي كان لا يزال على قيد الحياة . وقد حدثت بينه وبين ابن عايش القصة التي اوردناها ، ولسنا ندري متى حدثت على وجه التحقيق ، وكم من الزمن عاش بعدها .

وعلى اية حال فان كتاب الثعالبي كان قد عرف واشتهر قبل وفاته . وهو لم يحدد لنا متى ألفه . وهل كان ذلك في اواخر ايامه أو في أوائلها . وان كانت المقدمة تنم عن انه حين ألفه كان لا يزال في صحة تامة ، فهو لم يشك في عمله كلالاً ، ولا أظهر في عزله التي اختارها لنفسه لكي يؤلفه تبرماً . كل ما صدر عنه من شكوى ان هذه العزلة طالت ، فحرمة من مجالس ولي الفضل عليه ، عبيد الله بن أحمد الميكالي ، الذي اشار عليه بتأليفه ، ورسم معه خطة العمل .

فهو اذاً قد ألف في اواخر القرن الرابع أو اوائل القرن الخامس أي

قبل ان يؤلف ابن الاجدابي - فيما يبدو - كتابه بفترة كافية . بقي أن ندلل على وصول كتاب الثعالبي الى يد ابي اسحق أو عدم وصوله . وهذا أمر تعوزنا عليه الأدلة حتى الآن . ان صاحب « فقه اللغة » قدم لكتابه بمقدمة طويلة أوضحت سيرته ، وأبان في هذه المقدمة عن المصادر التي استقى منها « المتن » الذي وضعه بين أيدينا . اما ابن الاجدابي فلم تزد مقدمة كتابه عن بضعة أسطر غاية في الإيجاز ايضاً ، كإيجازه في متن الكتاب .

وإذا كانت الطريقة التي سلكها كل من الثعالبي وابن الأجدابي واحدة ، فإن هناك كذلك تشابهاً بينهما في الدقة البالغة التي اتسمت بها مادتهما ، كما سنرى من الأمثلة التي سنختارها لكل منهما .

ويعترف الثعالبي أنه أخذ مادة كتابه عن كتب الأئمة السابقين له ، من أمثال الخليل بن أحمد ، والاصمعي ، وأبي عمرو الشيباني ، والكسائي ، والأزهري .. ومن سواهم من ظرفاء الأدباء الذين جمعوا فصاحة العرب البلغاء ، الى اتقان العلماء ، ووعورة اللغة الى سهولة البلاغة^١ .

ويحدثنا في مقدمة كتابه حديثاً طويلاً عن سبب تأليفه ، وان الذي دفع به الى هذا المجال هو الأمير ابو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي . وهو الذي رسم له الطريق الذي يسير عليه ، وان مجلسه « كانت تجري فيه نكت من أقاويل أئمة الأدب في أسرار اللغة ، وجوامعها ، لطائفها وخصائصها ، مما لم ينتبهوا لجمع شمله ، ولم يتوصلوا الى نظم عقده . وانما اتجهت لهم في اثناء التأليفات ، وتضاعيف التصنيفات لمع يسيرة كالتوقيعات ، وفقر خفيفة كالاشارات ، فيلوح لأبي منصور « بالبحث عن أمثالها ، وتحصيل اخواتها ، وتذليل ما يتصل بها ، وينخرط في

سلكها ، وكسر دفتر جامع عليها ، واعطائها من النيقة ^١ »
وقد قسم الثعالبى كتابه الى ثلاثين باباً ، يضم كل منها عدة فصول ،
ويمتاز بأنه ينسب أحياناً كل معنى الى قائله أو قائلية .
يقول مثلاً في الثياب :

« عن أبي عمرو بن العلاء ، والأصمعي ، وأبي عبيدة ، والليث :
كل ثوب من قطن فهو سَحْل . كل ثوب من الأبريسم فهو حرير .
كل ما يلي الجسد من الثياب فهو شِعَار ، وكل ما يلي الشعار فهو دِثَار .
كل ملاءة لم تكن لِفَقَيْن (قطعتين متضامتين) فهي رِبْطَةٌ . كل
ثوب يبتذل فهو مِبْذَلَةٌ ومِعْزُور . كل شيء أودعته الثياب من جُوقَةٍ
أو تَخْتٍ أو سَفَطٍ فهو صُوان وصِيان . كل ما وقى شيئاً فهو
وقاء له ^٢ »

ويقول أبو اسحق في باب « اللباس » :
« السَّبُّ هو الثوب الرقيق . والبُرْدُ المسهَّم هو المخطط . والمُفَوِّف
الذي فيه نقوش . والسَّحْلُ الثوب الرقيق من القطن . والشَّفُّ الثوب
الرقيق يُظهر ما خلفه . والسابِري مثله .
« الحَصِيف من الثياب الكثيف الساتر . والأَتْحَمِيَّة برود منسوبة إلى
أَتْحَم ، من أرض اليمن . والمَجَاسِد الثياب الحمر واحداً مُجَسَّد .
والمُعَصَّر المصبوغ بصُفْرَةٍ خفيفة . والمُفَدَّم المشبَّع بالصبغ . والسَّرَق
شقاق الحرير الواحدة سَرَقَةٌ .. الخ .

١ ص ١٣ - النيقة اسم من تنيق أي تجود وبالع .

٢ ص ٣٥ .

هذا ، وقد ذكر الثعالبي في مواضع اخرى من كتابه كثيراً من
الأسماء التي أوردها ابن الاجدابي في الثياب . وقس على ذلك سائر
الأبواب .

مادة كتاب ابن الاجدابي

كفاية المتحفظ :

الكتاب مصنف أبواباً عِدتها واحد وخمسون باباً . منها الطويل الذي
يستغرق صفحتين ، ومنها القصير الذي لا يجاوز بضعة أسطر .

والمتبوع لسير هذه الأبواب يجد أن منها أحد عشر باباً تتحدث عن
الرجل والمرأة ، عن الصفات المحمودة عند كل منهما ، والصفات المذمومة .
ثم عن الألقاب التي يلقب بها الرجل في صلته بالنساء ، وأسماء الحلى التي
تنحلى بها النساء ، وعما يحتاج اليه من معرفة خاق الانسان ، ثم ألقاب
الانسان في أطوار حياته ، رجلاً كان أو امرأة ، والصفات الخلقية في
كل منهما .

وستة ابواب في الابل والخيول ، في ألوانها وسيرها ، وألقابها ...
وثمانية أبواب في الحرب والسلاح : في اسماء الحرب ، وفي السلاح ،
محموده ومذمومه ، وأجزاء السيف ، والرماح والسهم ، والدروع والبيض .
وسبعة أبواب في الحيوان : في السباع والوحش ، وفي الطباء ، وفي
البقر الوحشية ، وفي الحمير الوحشية ، وفي النعام ، وفي الطير ، ثم في
النحل والجراد والهُوام ، وصغار الدواب .

وثلاثة أبواب في الفيافي والجبال : في نعوت القفار والأرضين ، وفي الرمال وفي الجبال ، والأماكن المرتفعة ، والأحجار وما شاكلها .

وباب في المحال والابنية .

وأربعة أبواب في مظاهر الطبيعة : في الرياح وفي السحاب وفي المطر ، وفي السيول والمياه .

وأربعة أبواب في النبات : في النبات وفي الزهر ، وفي الكروم ، وفي النخل . وخمسة أبواب في الطعام والشراب : في الاطعمة وفي انواع الأكل . وفي الأشربة وفي اللبن وفي العسل ، وفي أسماء الحمر .

وباب في الآنية .

وبابان في اللباس . وباب في الطيب ، وآخر في الآلات وما شاكلها .

والمتتبع للمادة التي أوردها ابن الجدابي في هذا الكتاب الصغير يدرك سعة اطلاعه ، ومبلغ دقته ، وبصره بالفوارق اللغوية الدقيقة بين المسميات واسمائها ، ولا كذلك الهمداني . كما يدرك مبلغ الثروة الهائلة التي تتمتع بها اللغة العربية ، ومبلغ الدقة البالغة في اختيار الألفاظ ، وانها تستحق ما قاله عنها شاعر النيل ، حافظ ابراهيم .

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية وما ضقت عن أي به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آله وتنسيق آيات لمخترعات ؟

كذلك يبين لنا ان كثيراً من الألفاظ اللغوية التي نظن اليوم انها مترادفة هي في حقيقة وضعها ليست كذلك . هي ألفاظ متقاربة الدلالة في الوضع ثم تنوسى هذا التقارب لبعدها عن نقطة انطلاقها ، فظن انها مترادفة . ولو عملنا على تجلية هذه الفوارق ، وانصرفنا اليه مجامعنا اللغوية بهمة لوجدنا أنفسنا امام لغة غاية في الدقة والتحديد ، وهو ما ينقص

لغتنا اليوم . ولو اننا أعدنا النظر في معاجمنا ، في ضوء النصوص الواردة عن العرب ، لنحينا كثيراً من المعاني المتأرجحة ، و « العائمة » ولأزلنا من معاجمنا ، ومن شروح آدابنا كثيراً من صور الشك والتردد والابهام .

هذا مثلاً باب يتحدث فيه المؤلف ، عن اجزاء جسم الانسان ، فيقول :

الأسنان : أسنان الانسان اثنتان وثلاثون سنّاً ، اربع ثنانيا ، وأربع رباعيات ، وأربعة أنياب ، وأربعة ضواحك ، واثنتا عشرة رَحَى ، ثلاث من كل جانب ، ثم اربعة نواجذ ، وهي اقصاها . فقالوا ، والناجذ ضرس اللحم . والنواجذ والأرجاء هي الأضراس .

فاذا سقطت أسنان الصبي قيل - قد تُغَرِ الصبي ، فهو مثغور . فاذا نبت قيل قد اتَغَرَّ واتَغَرَّ (بالتاء والتاء مع التشديد فيهما) .

واللسان يذكر ويؤنث ، وجمعه إذا ذكّر ألسنة ، فاذا أنث فالجمع ألسُن . « وعكدة اللسان أصله . والصردان العرقان المستبطنان له .

ثم يتحدث عن غير الفم والاسنان فيقول :

« والجيد العنق ، وهو التليل ، والهادي ، والطلئية ، والجمع طلى .

والأخدعان عرقان في موضع المحجّمتين .

والوريد عرق في العنق يتصل بالقلب .

والأوداج العروق التي يقطعها الذابح من الشاة ، واحدها ودّج .

واللغاديد : لحم باطن الحلق ، مما يلي الأذن .

والقصرة أصل العنق .

والضبّع العضد .

والمأبيض باطن المرفق . وهو باطن الركبة ايضاً .

والنواشير عروق باطن الذراع . وكذلك الرواهيش أيضاً . وقبل
النواشير عروق ظاهر الذراع . والرواهيش عروق باطنها .
والمعصم موضع السوار .

والزئند طرف الذراع الذي انحسر عنه اللحم ، فرأسه الذي انحسر
عنه الخنصر هو الكرُسوع ، ورأسه الذي يلي الإبهام هو الكوع .
والراحة الكف . وفيها الأصابع . وهي الإبهام ثم السبابة ثم الوسطى
ثم البنصر ثم الخنصر . وكذلك أسماؤها في الرجل أيضاً .
والسلاميات : العظام التي بين كل مفصليين من مفاصل الأصابع .
والرّواجيب بطون السلاميات وظهورها .
والبراجيم رؤوس السلاميات من ظهر الكف ، وهي ظهور مفاصل
الأصابع .

والكاهل مقدم الظهر مما يلي العنق ، وهو الكتيد والثبج .
والصلب من الكاهل الى عجب الذنب .
والمطا الظهر ، وهو القمرا ، مقصور أيضاً .
والخيزوم الصدر ، وهو الكلكل ، والبرك ، والجوشن ،
والجوشوش .

ويستمر المؤلف بعد ذلك في ذكر بقية أعضاء الجسم ، ثم يذكر ما
في الصدر ، وما في الجوف والبطن ...

هذه الدقة المتناهية في ذكر الاسماء التي تدل على اجزاء الجسم ،
ظاهرها وباطنها ، تدل على أن المؤلف بذل جهداً محموداً في استخلاص
كل هذه الاسماء من ثنايا كتب اللغة ، وكتب الأدب والرسائل ،
والمعاجم ، وغيرها ، في صبر وأناة بالغين ، ومعرفة دقيقة بالمسميات نفسها .

إن وجود هذه الاسماء بهذه الدقة يؤيد ما قلناه من ان اللغة العربية ليست فقيرة ، وانما العيب فينا نحن الذين اهملنا هذا التراث القيم فلم نستفد منه في نهضتنا الحاضرة التي هي في حاجة ماسة الى كل هذه الالفاظ ومثات غيرها .

ان لدينا نهضة في جميع فروع المعرفة ، وهي محتاجة الى ألفاظ لتدل بها على ما جد من مستحدثات العلوم ، وتراثنا العربي مليء بالالفاظ التي يمكن أن تفيدنا في هذا المضمار ، وليس علينا الا تجلية هذه الأسماء . اننا نحتاج الى بعض الصبر والمقدرة على ذلك ، ولكننا واثقون ، اذا اخذنا في الاسباب ، أن نصل الى ما نريده ان لم يكن كله فجله . علينا ان نحبي الكتب القديمة وما جاء فيها من الفاظ ، بدل ان نعيب اللغة ، ونتهمها بالقصور ، والقصور في واقع الامر انما هو فينا نحن ، وبدل ان نسخر من الالفاظ التي تحت ايدينا لأن ألسنتنا لم تألفها ، فالألفاظ الأجنبية التي نلجأ اليها لا تقل غرابة ، بل انها تحتاج الى توضيح لمعانيها أطول وأعوص .

الأزمة والأنواء

هذا هو الكتاب الثاني الذي عثر عليه ونشر من كتب (ابن الجدابي) وقد نشره الدكتور عزة حسن عام ١٩٦٤ ، وتولت الانفاق عليه وزارة الثقافة والإرشاد بسورية « احياء التراث القديم » .

وهو مطبوع طبعاً أنيقاً ، ويقع في ٢٠٠ صفحة من القطع المتوسط ، إذا استبعدنا المقدمات التي ليست للمؤلف ، والمراجع التي رجع اليها الناشر .

وقد قدم له الناشر بمقدمة عن « الأنواء عند العرب في الجاهلية »
ثم عن « الأنواء عند العرب في الاسلام » ، وأعقب ذلك بالسلام
عن الكتاب نفسه فقال « بعد أن أبان أن « العلماء كادوا ينقطعون عن
التأليف في الأزمنة والأنواء انقطاعاً تاماً مع إطلالة القرن السادس للهجرة » -
أن الكتاب « يضم بين دفتيه زبدة علم الأزمنة والأنواء عند العرب في
الجاهلية والاسلام » ، مضافاً إليها فصول من هذا الفن أخذها العرب من
الأمم الأخرى التي اتصلوا بها بعد الاسلام ، وفصول أخرى مستمدة من
علوم الهيئة والنجوم التي نشأت عند العرب بعد الاسلام ايضاً ... »
ثم قال :

« وقد تبع ابن الاجدابي خطة الایجاز في تأليف كتابه هذا ، فلم
يحشر فيه الآراء المختلفة ، والنظريات المتضاربة حشراً ، ولم يأخذها
بحذافيرها ، ولم يذكر تفاصيلها الجزئية الدقيقة . وإنما ذكر منها الخطوط
العامة التي تحيط بالقضايا ، والمسائل الهامة ، وعرض الأفكار الأساسية في
الأبواب ، في بساطة ويسر ، وفي لغة نقية سهلة ، بعيدة عن التعقيد
العلمي . وكأني به قد قصد من وضع كتابه الى تبسيط فن « الأزمنة
والأنواء » وتقريبه من أذهان جمهور القراء في عصره . ولم يقصد به
كبار العلماء من ذوي الاختصاص . فكان موفقاً في عرض أبوابه وفصوله
في صورة جميلة ، محببة إلى النفوس ، فجاء كتابه لذلك مختصراً لطيفاً ،
يمضي فيه القارئ مضياً سهلاً ، دون أن يصطدم فكره بمشكلات العلم
الصعبة أو يتعثر في مسالكه البعيدة المجهولة ' » .

ونزيد أن هذا العمل لا يمكن ان يقوم به الا شخص ملم كل الامام
بتفاصيل الفن الذي يكتب عنه . وتكون اصوله وفروعه واضحة في ذهنه
كل الوضوح ، حتى يستطيع أن يعربها من كل الشوائب ويستخلص منها

الأفكار الأساسية الضرورية ، ويصوغها للقارئ في أسلوب سهل مبسط مستساغ .

والذي يستعرض المادة التي قدمها ابن الأجدابي في كتاب « الأزمنة والأنواء » يجد أن الطابع اللغوي يسودها الى جانب الطابع العلمي ، وان ابا اسحق لم ينس ، وهو يكتب في الأنواء ، انه عالم لغوي ، وانه وضع « كفاية المتحفظ » .

فهو مثلاً حين يتكلم عن الشمس حين تطلع وحين تغرب ، وحين تملأ الأفق ، وحين تنتصفه .. البخ ، لا يكتفي باعطاء القارئ ما هو في حاجة اليه من هذه البيانات ، بل يقول :

« وللشمس عند العرب اسماء ، منها ذكاء ، ممدود لا ينصرف ، سميت بذلك لأنها تذكو النار . ولذلك قيل للصبح « ابن ذكاء » ، لأنه من ضوءها .

ومن أسمائها ايضاً الغزالة ، وبُوح ، وبراح ، والجَوْنَة . سميت جَوْنَة لشدة بياضها . والجَوْن ايضاً الأسود ، وهو من الأضداد .

ومن اسمائها الإلاهة ، ويقال لاهة ، بغير ألف ولام . قال الشاعر :

تَرَوَحْنَا مِنَ اللَّعْبَاءِ قَصْرًا فَأَعْجَلَنَا الْإِلَاهَةُ أَنْ تَثُوبَا

ولا تسمى الشمس « الغزالة » الا في ارتفاع النهار خاصة . وقد قيل إن الغزالة ارتفاع النهار نفسه . يقال « لقيت فلاناً غزالةً الضحى ، ورأد الضحى أي في وقت مدّ الضحى ، وارتفاع النهار .

ويقال : ذرت الشمس ذروراً ، وشرقت شروقاً إذا طلعت . فاذا استقلت وخلص ضوءها قيل : قد أشرقت إشراقاً ، وبزغت بزوغاً .

« وَقَرْنُ الشَّمْسِ أَوَّلُ مَا يَبْدُو مِنْهَا فِي الطَّلُوعِ .
وَحَوَاجِبُهَا : نَوَاحِيهَا . وَأَيَاتُهَا ، وَأَيَاؤُهَا : ضَوْؤُهَا وَشُعَاعُهَا .
« وَالصَّبْحُ مَا يَقَعُ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ ضَوْئِهَا ... الْخ » .

نحن إذاً امام كتاب لغوي - فلكي . لغوي يتعقب المعنى تعقباً كاملاً
أو شبه كامل حتى يجلوه . وإذا كان « كفاية المتحفظ » قد عرض
لموضوعات شتى في مختلف نواحي الحياة، واستطاع مؤلفه ان يعرض علينا
فيه خلاصة ما قيل من اسماء للمسميات التي ذكرها ، فإن كتاب « الأزمنة
والأنواء » لا يعرض إلا لناحية واحدة هي موضوعه . ومع ذلك فإن
ابن الجدابي قد وفاها حقها اللغوي ، فذكر الأزمنة ، وقسمها الى
اقسامها ، وذكر اسم كل قسم منها (الساعة واليوم والشهر والسنة) ،
ثم ذكر شهور السنة بالتفصيل وعدد اسماءها وما قيل فيها ، وعلامات
الشهور العربية ... واستمر على هذا المنوال حتى آخر الكتاب .

كذلك نحن أمام كتاب أدبي . فالمؤلف كثيراً ما يؤيد كلامه بشواهد
من كلام العرب وأشعارهم ، يستدل بها على المعنى الذي قال به .

ونستطيع ان نقول هنا مع ناشر كتاب « الأزمنة والأنواء » إن قيمة
الكتاب متعددة الجوانب ، فيها جانب علمي ، وآخر أدبي ، وجانب
ثالث لغوي ، ورابع تاريخي .

« وتتجلى قيمته العلمية في بيان ما كان معروفاً عند العرب في العصر
الجاهلي من معارف في الأزمنة والأنواء ، ثم في بيان ما كان معروفاً ،
ومستعملاً من هذا الفن في البيئة العربية بعد الاسلام الى عصر المؤلف .
وكثير من هذه الامور التي أوردها المؤلف في كتابه ما زالت معروفة
ومستعملة كذلك في أيامنا هذه ، ولا سيما الأمور التي تتصل بالسنين
والشهور وفصول السنة على المذاهب المختلفة .

وقد أجاد المؤلف حقاً في كلامه عن الشهور السريانية التي كانت شائعة مستعملة في المشرق العربي في عصر المؤلف ، وفي كلامه عما يكون فيها من المواسم الزراعية وغيرها . وما زلنا ، نحن العرب ، نستعمل هذه الشهور في المشرق العربي الى اليوم .

« أما من الناحية الادبية ، فالكتاب يفيدنا في فهم كلام العرب الذي ترد فيه أشياء عن الأزمنة والأنواء من اشعارهم ، وأسجاعهم ، وامثالهم في الجاهلية والاسلام . وهي مبدولة ومبثوثة في دواوين الشعراء ، وفي كتب الأدب واللغة .

« هذا الى شواهد الشعر والنثر من كلام العرب التي نثرها المؤلف هنا وهناك في ثنايا كتابه مع شرح لألفاظها ، وايضاح لمعانيها ، في اغلب الأحيان .

والباب الأخير من الكتاب هو باب معرفة الشهور الشمسية ، وأسمائها عند الأعاجم وما يحدث في كل شهر منها من طلوع المنازل أو سقوطها - معرض حافل بأسجاع العرب التي قالوها في الأنواء والأزمنة التي توافق طلوع النجوم الثابتة . وفي هذه الأسجاع جمال ادبي خاص ، غني بالموسيقا ، ينشأ من رشاقة الألفاظ ، وإيجاز العبارة ، وارنان السجع . مثل قولهم « إذا طلع الذراع ، كشفت الشمس القناع ، وأشعلت في الأفق الشعاع ، وترقرق السراب بكل قاع » ومثل قولهم « اذا طلع سهيل ، برد الليل ، وخيف السيل ، وكان لأم الحيوار ' الويل » . ولم يهمل المؤلف شرح ألفاظ هذه الأسجاع ، وايضاح معانيها ايضاً .

« وأما في اللغة ، فالكتاب يفيض بالألفاظ الدائرة في موضوع الأزمنة

١ ولد الناقبة ساعة تضعه أو الى أن يفصل عن أمه (ج) أحورة وحيران .

والأنواء كثيراً . ومعظم هذه الألفاظ قد أصبحت من اصطلاحات هذا الفن مع الزمن .

« ومن استقراء هذه الألفاظ في كتب الأزمنة والأنواء التي وصلت إلينا وفي كتب اللغة معاً ، ثم من قياس بعضها ببعض بعد ذلك - يمكننا كشف التطور الذي طرأ على مدلولات هذه الألفاظ خلال العصور . وسيكون هذا الاستقراء سبيلاً إلى وضع معجم لغوي ، يضم شتات هذه الألفاظ ، كما سيكون هذا المعجم خطوة في سبيل وضع المعجم التاريخي للغة العربية . وما أحوج العرب في نهضتهم الحديثة إلى مثل هذا المعجم . » وللكتاب أخيراً قيمة تاريخية . ذلك أنه يفيد الباحثين في مسألة تاريخ العلوم في الحضارة العربية ، ويعتبر مرجعاً قيماً ، ووثيقة جيدة في أيدي هؤلاء الباحثين . وهذا إلى أنه سيمثل منحى من مناحي الفكر العربي في مرحلة فسيحة من مراحل تاريخه الطويل المجيد »^١ .

وبعد : فالكتابان اللذان عثر عليهما من تراث (ابن الجدابي) الفكري يدلان على أصالة في التفكير ، وسعة أفق لغوية ، وإطلاع أدبي بعيد المدى ، وقدرة فائقة على تبسيط المادة مع وضوحها .

ولعل الأيام تكشف عن كتبه المفقودة حتى يتكامل بناء الحكم على هذه العقلية العلمية الأدبية العميقة .

حقاً أن الكتابين مختصران . و « كفاية المتحفظ » غاية في الاختصار ، إذا ما قيس بغيره من الكتب التي عاجلت موضوعه . ولكن وضع « المتون » كان أصلاً من أصول التأليف عند العرب ، ولا سيما بعد القرن الرابع ، بسبب تأسيس المدارس في المدن ، وللأسباب الأخرى التي ذكرها المؤلفون في مقدمات كتبهم التي أشرنا إليها .

كانت هذه المتون إذاً كالكتب المدرسية في أيامنا . وكانت كذلك
زاداً لأوساط الناس الذين كانوا يرغبون في أن يتزودوا بشيء من الثقافة
العامة دون أن يتوغلوا فيها . وهذا هو الذي حدا بفريق من المؤلفين إلى
أن يضعوا في العلم الواحد كتابين أو ثلاثة : مختصر ومتوسط وطويل .
و (ابن الأجدابي) نفسه فعل هذا في فن العروض . فالمختصر لطالبي
العلم من التلاميذ ، والمتوسط لأوساط الناس ، والمطول يضم شتات المسائل ،
ويحيط بأطراف المادة . وإذا اقتصر على مؤلفين كان الموجز منهما للطائفتين
الأوليين .

مراجع البحث

- ١ - كفاية المتحفظ ، ونهاية المتلفظ لابن الاجدابي
- ٢ - الأزمنة والانواء لابن الأجدا بي - دمشق ١٩٦٤
- ٣ - رحلة التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن احمد) - تونس ١٩٥٨
- ٤ - أدب الكاتب لابن قتيبة (ابو محمد عبد الله بن مسلم) .
- ٥ - فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي .
- ٦ - بغية الوعاة لجلال الدين السيوطي .
- ٧ - الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمداني ط. الاب لويس شيخو .
- ٨ - معجم البلدان لياقوت الحموي (لابي عبد الله ياقوت بن عبد الله) بيروت - روائع التراث العربي - مكتبة خياط .
- ٩ - معجم الادباء لياقوت الحموي .
- ١٠ - الاعلام لخير الدين الزركلي .

- ١١- كشف الظنون عن اسماء الكتب والفنون لحاجي خليفة (مصطفى ابن عبد الله) .
- ١٢- اعلام من طرابلس لعل مصطفى المصراتي .
- ١٣- انباه الرواة على انباه النحاة لجمال الدين أبى الحسن القفطى (دار الكتب - القاهرة ١٩٥٠) .
- ١٤- بروكلمان - تاريخ الأدب العربى .
- ١٥- مجلة المجمع العلمى بدمشق ج ٢ مجلد ٣٣

د. عبد العزيز برهام